الهوية-وازمة الانتماء

المدرس المساعد

علاء جبار

احمد(*)

المقدمة:

في التاريخ الإنساني تعرضت هوية الانتماء لجملة من المتغيرات حتى استقرت على ما هو عليه الآن. ويبدو للباحثين ان هذا الاستقرار هو الآخر معرض لمتغيرات قد لا تنتج الجوانب الإنسانية الإيجابية لمضامين الانتماء وقد ترجعه الى حالات الاغتراب والضياع ليعيد من جديد ترتيب قواعد وأسس مادية ومعنوية وموضوعية لهوية انتماء جديد .

هذا البحث يعني بدراسة متواضعة حول إشكالية موضوع الهوية ومسألة الانتماء وتفاعلاتها. وعندما نتناول هذا الموضع بالتحليل والتاريخ فأننا بذلك نؤمن بأهمية الموضوع الذي يدخل في خضم الموجة العاتية للحضارة الغربية التي أخذت وعلى نحو لم يسبق له مثيل في التاريخ بالترويج لمبدأ الصراع الحضاري بدلا من الصراع الأيديولوجي الذي طغى في فترة ما من هذا الزمن.

وينطلق البحث في دراسة إشكالية الهوية ومن ثم أزمة الانتماء مع تصاعد الهيمنة الفكرية والمادية للغرب.

المبحث الأول :المعنى البدائي للهوية

إن الهوية تعني وحدة الانتماء، إلا أن هذا لا يعني التجانس، بل الوحدة في المتنوع وكل ما يؤيد إلى التقارب عند نقاط مشتركة .

(*)مدرس العلوم السياسية- الجامعة المستنصرية.

وتتعلق الهوية بقضية تنمية الشعور بامتلاك الجماعة خصائص ذاتية مشتركة تميزهم عن الجماعات الأخرى، فهي ترتبط بالقدرة على خلق الشعور بالانتماء المشترك بين أفراد الجماعة الوطنية الواحدة عن طريق تعزيز الإحساس بالولاء نحو الدولة الوطنية بمعزل عن انتماءاتهم الأثنية الفرعية المحلية وبالتالي امتلاكهم هوية خاصة بهم .

وعادة ما تتشعب الهوية إلى ثلاثة مستويات[1] –

-. المستوى الفردي ويعني شعور الفرد بالانتماء إلى جماعة أو إطار إنساني أكبر يشاركه في منظومة من القيم والمشاعر والاتجاهات.

.. المستوى الجمعي ويعني تجسد الهوية في شكل تنظيمات وهيئات شعبية ذات طابع تطوعي واختياري.

.. المستوى المؤسساتي وهو تبلور هذه الهوية في مؤسسات وأبنية وأشكال قانونية على يد الحكومات والأنظمة وهو ما يطلق عليه (مأسسة الهوية) وعلى الرغم من أن الهدف الأساسي لمأسسة الهوية هو تأصيل الهوية والسعي لتعبير أفضل عنها فإنها قد تؤدي إلى ضعف أصالتها وخمودها في النفوس، ذلك أن كل مؤسسة للهوية تخدم واحد(من جوانب الهوية على حساب جانب آخر.

ولقد عرف الأنسان الانتماء من خلال خلق هوية معبرة عن ارتباطات موضوعية أو وهمية تجلت في تميزه عن انتماء الأفراد للجماعات الأخرى لمراحل تطورية تاريخية اتسمت بصفات ومميزات لكل واحدة منها

المرحلة البدائية:

---

[1] الدكتور صلاح قنصوة، الغزو الثقافي وحوار الحضارات، المنار السنة الثالثة، العدد ٣١، تموز ١٩٨٧م، ص١٣١.

[2] علي عباس مراد، التنمية السياسية وأزمة المشاركة، محاولة في تحديد المفهوم، (مجموعة باحثي وآ مرو ، مشكلات وتجارب التنمية في العالم الثالث)، بغداد، داشر الحكمة ١٩٩٠م، ص١٢٣.

[3] للمزيد أنظر عفيف البوني، في الهوية القومية العربية، مجلة المستقبل العربي، العدد ٥٧، ١٩٨٣م، ص٧ وما بعدهاقار مع محمد عابد الجابري، العرب والعولمة المصدر السابق نفسه، ص٢٩٨ وص٢٩٩.

هوية القرابة الدموية Consanguinly

كل علاقة اجتماعية تعتمد على نسب منحدر من جد مشترك هي علاقة قرابية دموية طالما أنها تتجسد بالروابط التي تربط أعضاء الفخذ والعشيرة الواحدة، وقد يعتبر الأفراد اللذين تتبناهم العشيرة (أي الأفراد اللذين يكونون الروابط الدموية الشكلية غير الأصلية) أعضاء في القرابة الدموية) ويقول العالم الأنثروبولوجي البريطاني ((راد كلف بروان)) من الضروري التمييز بين علاقات القرابة والمصاهرة الدموية الناشئة عن الزواج والمصاهرة[4] من اجل ترسيخ الانتماء والمحافظة على هوية الأفراد حيث يشار إليهم على انهم من أفراد هذه العشيرة أو تلك الجماعة، ولم يرتقي حينها الانتماء إلى اسم الأرض إلى الاتحاد الجديد للجماعات الدموية ((العشائر والأفخاذ)) صوب القومية، لأن الجماعة القومية الأخرى بدأت من الأسرة والعشيرة والقبيلة التي هي مجموعة عشائر، كل تعتمد في التمييز والانتماء على رابطة الدم، وانطبق هذا المفهوم على معظم شعوب العالم القديم في آسيا وأفريقيا وأوربا لمرحلة بدائية للتعبير عن الهوية والانتماء .

الطوطمية: Totemisme

تطلق كلمة Totem التي نسب إليها ((الطوطمية)) على كل اصل حيواني او نباتي تتخذ عشيرة ما رمزا لها ولقبا لجميع أفرادها، وتعتقد إنها تؤلف معه وحدة اجتماعية ترتقي الى منزلة التقديس، فأذا كان الذئب مثلا " طوطما" لعشيرة ما فمعنى ذلك ان العشيرة تتخذ هذا الحيوان رمزا لها يميزها عما عداها من العشائر ولقبا يحمله جميع أفرادها للدلالة على انتمائهم إليه، وتعتقد انها وفصيلة الذئاب من فصيلة واحدة وهي علاقة مقدسة لأفراد الجماعة والعشيرة وتقع جميع عقائدها وطقوسها ومميزات سلوكها الدينية والثقافية التي تعبر عن الانتماء والهوية على أتسا هذا التقديس. ويندر ان يكون "الطوطم" من الجماد

---

[4] بروفسور ديكانظر ميشيل معجم علم ا جتماع ترجمة احسا محمد الحس . دار الرشيد بغداد ص ٨٠ ٨١ .

[5] جورج قرم ، تعدد ا ديا وانظحقم دار النهار بيروت ١٩٧٩ .

او الطبيعة، إذ غالبا ما يكون من الحيوانا المعبرة عن رموز مؤثرة في الجماعة .

والطوطمية مرحلة أولى من مراحل الديانات البدائية وانتشرت بشكل خاص في أمريكا الشمالية وبالذات عند الهنود الحمر. وقد ظهر وجودها في استراليا أيضا وفي مناطق أفريقيا، والمهم هنا انها كانت ديانة بدائية ولكنها ركزت على هوية الفرد وانتمائه وطبيعة سلطة الجماعة من خلال عقائد هذا الانتماء في تنظيم أنفسهم والانغلاق على جماعتهم.

المدلول الأجتماعي والأقتصادي لهوية الانتماء البدائي:

أن ميزة البدائي في الافتقار الى الحضارة وفي حقبة ما قبل البداوة والمجتمع الريفي والقروي والمجتمع البدائي Primitive Society كان قاسيا في تحدي الطبيعة مع ضعف إمكانات الجماعة الدموية والطوطمية، وسمته كانت الترحال للهروب من هذا التحدي فلا مجال للارتباط الدائم مع الأرض حتى يرتب ذلك ميزة او خاصية معبرة في هوية الانتماء. حتى العمل وتقسيم العمل والارتزاق كان يعتمد على الترحال في الصيد والقنص او البحث عن الطعام من النبات الطبيعي، وترابط هذا مع عدم وجود تراث مكتوب ليشكل انطلاقة فكرية ثقافية تدخل في تعبيرات الانتماء والهوية المميزة للجماعة التي أشار اليها مع الباحثون الأنثروبولوجيون بأسم جماعة صغيرة تقطن في ارض ذات مساحة صغيرة أيضا، وعلاقات العمل والتنظيم الأسري محدودة بينهم لم ترتقي بعد الى استقرار الأوضاع السكانية والاقتصادية والثقافية بالشكل الذي يجعل من هذه الأوضاع عوامل مؤثرة في صياغة هوية جديدة. حتى في الشكل السياسي فكانوا جميعا يجتمعون ويتخذون القرار الجماعي المتعلق في حياتهم اليومية، وبسبب عجزهم الواضح في إيجاد الحلول المنطقية لمشاكلهم، كانوا يوعزون الغاز حلها الى شعائرهم وطقوسهم الخرافية. فالنسق القرابي Kinship System لم ينتقل بعد الى تقسيم العمل والملكية وما ترتب من ذلك من تفاوت

---

[6] ابراهيم مدكور معجم العلوم ا جتماعية الهيئة المصرية للكتاب ١٩٧٥ ص ٣٧٣ .

في الثروة والنفوذ والجاه ثم التأثير. ولم تنتقل الزعامة الى السلطة المهيمنة لجماعة على حساب جماعة أخرى من اجل المصالح، ولم ينتقل الوضع البسيط المعتمد على التقاليد والشعائر الى التقنين والتعاقد والتحالف او تنظيم الحروب والصراعات من اجل المصالح والنفوذ وبسط الهيمنة على المناطق المجاورة او البعيدة عن منطقة نفوذ الجماعة.

التصنيف الاجتماعي:

لم تظهر ملامح التصنيف الاجتماعي في هذه المجتمعات بالشكل الذي ظهر في مراحل التطور الحضاري للمجتمعات بعدها، فلا وجود لتصنيف ديني أو تصنيف طبقي أو تصنيف عرقي او تصنيف سياسي حتى يدخل في التأثير على ملامح هوية الانتماء ، فكل ما كان موجودا هو التصنيف الأسري (مرأة، طفل، شيخ) وكلهم منصهر و) في بودقة الانتماء الدموي أو الطوطمي.

حقوق الانتماء:

كان الانتماء البدائي يرتب حقوقا وواجبات للفرد داخل الجماعة تتمثل في الحماية المشتركة والعيش المشترك وتقاسم الغنائم والمشاكل والمآسي معا. الفرد موجود بوجوده داخل الجماعة، وهو لا شيء خارجها، فعندما ينتقل إلى جماعة أخرى بأي طريقة كانت فلا حقوق له ويكون مصيره مرهون بإرا تلك الجماعة وطقوسها وعاداتها، تقتله، تستغله للعم ، تجعل منه كبش فداء او ضحية لطقوسهم الدينية. والمهم انه خارج جماعته يفقد هوية الانتماء. وهذا يفسر التمحور الشديد للفرد مع الجماعة البدائية. وحيث أن الجماعة القرابية متداخلة للجوانب القرابية بالجوانب السياسية والاقتصادية، فالحقوق الفردية

---

[7] الدكتور محمد عبد محجوب . مقدمة لدراسة المجتمعات البدوية . جامعة الكويت . دار القلم . بيروت ص ١٨ .

والواجبات متداخلة مع بعضها أيضا. فالفرد هو الجماعة والجماعة هي الفرد، وبذلك أصبحت الهوية واحدة.

هوية الحب المشترك والتعصب المشترك:

لم تعرف الجماعة البدائية الكراهية والصراع بين أفرادها لانه منحسر فقط ضد الجماعات البدائية الأخرى، والعنف ظهر ضد الجماعات الأخرى أيضا، مما رتب الحب المشترك والتعاون المشترك بين أفراد الجماعة . وهذا رتب نظرة التعصب إلى الجماعة التي ينتمي إليها الفرد، ونظرة أخرى يتعصب بها ضد الجماعات الغريبة عنه . هذا ما أكده العالم الاجتماعي ((كارل مانهايم)) عندما أكد على المراحل التاريخية لتطور فكر الأنسان ومعارفه . فعلاقة الأنسان البدائي بالبيئة علاقة صارمة. وما كانت اكتشافاته إلا عن طريق الخطأ والمصادفة ((النار، الزراعة، الري... الخ)) ، العلاقة الوحيدة التي اكتشفها بنفسه وبمحض تفكيره هي علاقة الحب والدم مع محيطه الأسري ومن منطلق العقل كانت تعتبر الخيار الأول في الهوية والانتماء.

المبحث الثاني: هوية المجتمع الوظيفية:

لقد ظهر المجتمع الإنساني نتيجة لتفاعل الأنسان مع بيئته ونوعه واستجابة لعوامل طبيعية ((ايكولوجية)) ونفسية ((منبهات واستجابات)) وظروف تتصل بالحياة ((تحديات صعبة تتطلب التكاتف)) ولا بد أن تكون لهذا المجتمع وظيفة أساسية وهي حاجة اهتدى إليها الفرد والجماعة، وكانت مدخلا لانبثاق النظم الاجتماعية ومنها النظام السياسي، من اجل المساعدة على البقاء والاستمرار وتنظيم إشباع حاجاتهم وتحقيق الأفضل ثم الأفضل. وكان هذا هو

---

[8] الدكتور محمد اسماعيل تمطاع الثقافي . منشأة المعارف ا سكندرية . كلية الآداب ص ١٢٥ .

الشعور الأول بالانتماء لهوية المجتمع. ولكن هذه الوظيفة التي أفرزت نوعا جديدا من الانتماء لا تتحقق تلقائيا كما كان التجمع نفسه تلقائيا، فلا بد لتحقيـ . ذلك من وضع قواعد يتم على ضوئها تنظيم عملية المعيشة المشتركة بواسطة النظم أو التنظيم الاجتماعي كما عرفه "مارشال جونز" ((النسق الذي ترتبط بواسطته أجزاء المجتمع بعضها ببعض من ناحية وبالمجتمع ككل من ناحية أخرى بطريقة مقصودة وإرادية)) ".

دين الجماعة وهوية الانتماء:

لقد أصاب منظومة القيم والأخلاق والعادات انتهاكات عديدة تضر بمصلحة الفرد والجماعة المادية والمعنوية، وتراكمت هذه الانتهاكات في المراحل البدائية للتجمعات الإنسانية بعد ظهور الفوارق نتيجة ظهور الملكية والتمايز في امتلاك الثروة ومظاهر التسيد والسلطة، وكانت العلاقات الاقتصادية قائمة على استغلال القوي للضعيف وسيطرت القوي على الضعيف فسحبت هذه المعادلة منظومة العادات في التعبير عن هذه المظاهر، وكان أمام الفرد أما الاعتراف بالواقع الصعب المرير والبقاء في دائرة الانتماء وأن رفضها، أو الهروب الى جماعة أخرى لمعالـ((ة الاغتراب الداخلي والنفسي عنده، ولهذا جاءت المسألة الدينية كحلا لأزمة الاغتراب والهوية لهذه التجمعات.

فالنظرة الى الانتماء لمجتمع تسوده العجالة والمساواة والعيش الكريم أمنية لامجال لتحقيقها في عالم الواقع البدائي. فأعتبرها الدين قانون محوري أساسي للتجمع تحت سلطان قوي يكفل النزوع إلى الخير ويبعد الشر وتكون له المهابة الكاملة في النفوس، وهذه حقيقة لا يقو أن يكابر فيها باحث في أمور الأنسان والحياة وقد اعترف علماء الاجتماع بأن الدين ظاهرة عامة في جميع المجتمعات بلا استثناء وفي جميع العصور ولعب دو في تحديد هوية الانتماء

عمر عودة الـ يب [9] المسألة ا جتماعية مؤسسة الرسالة بيروت ١٩٨٦ ص ٢٣ .

بين الفرد والجماعات والجماعة والجماعات الأخرى وقد افرز العامل الديني جملة من القوانين في مسائل الهوية والانتماء

. الأديان الخرافية والوثنية لم ترتقي إلى المستوى المعبر عن جميع الأفراد في مسائل الهوية والانتماء لعجزها عن الوصول إلى الحلول المثلى لمشاكلها ولاقتصارها عن تعبير عن مصالح الفئة المسيطرة وعجزها عن تخطي الحدود الزمانية والمكانية ومتغيراتها فكانت تعبر عن انتماء ظرفي ووقتي، بل واعتبرت أحيانا في مجموعة العادات والتقاليد.

.. الأديان السماوية الشمولية استطاعت بفعل خصائصها وقدرتها الفكرية العقلية والوجدانية والغيبية أن تقدم حلول لمشاكل الفرد والجماعة وتساهم في رفد حاجاته التنظيمية بأطر نظرية انعكست في قدرته على القيام بـ

- التنظيم الأسري
- التنظيم السياسي
- التنظيم الاقتصادي
- التنظيم القضائي
- التنظيم الفكري
- التنظيم الأخلاقي

وقد استطاعت الأديان السماوية المعروفة ((الكتابية)) أن ترتقي بحياة المجتمع نحو التنظيم والاستقرار والتقدم ((هي التزمت بوحدة الفكر والصالح العام، وما ان دخلت فيها الآراء المتنافرة وتقوضت الوحدة الفكرية التي أنتجت تفتت الأفعال والقدرات برزت مظاهر عدم الإشارة الدينية إلى هوية الانتما . فعندما يقال لهذه المجموعة أو تلك بالمسيحية أو المسلمة أو اليهودية. أصبحت يشار إليها بالمجموعة العرقية أو القومية.

الأديان القومية:

اذا كانت الإمبراطوريات الأثنية قد سعت إلى السيطرة على الشعوب المختلفة التابعة لها بتوفيقية دينية متسامحة تحتمل التعدد وتقـ مصلحة الدول العليا بعد أن ظهر النظام السياسي وترسخ على مصلحة العقيدة، فأن الديانة القومية التي انحسرت مع تجمع جماعات لها مشتركات عرقية ودموية في شعب معين. ويذكر الباحثون من الديانات القومية الدين اليهودي والزرادشتية الإيرانية والشنتوية اليابانية، ويؤكد أر نولـ توينبي على ان ازدهار المزدكية كديانة قومية يعود إلى رد فعل للهيلنية مثلها مثل اليهودية المكابية.

وعلى أية حال تتصف الديانة القومية بـ

- الاتحاد مع الدولة (نظام اجتماعي مرتبط بالنظام السياسي).
- تبرير الحروب من اجل المنافع والانتشار والسيطرة على أراضي وخيرات الآخرين بالحروب الدينية أي هوية انتماء مزدوجة للمحارب، دينية وقومية، كما كانت الحروب الساسانية مع الروم.
- هوية نظام الدولة فوق هوية نظام العقيدة وان كان هنالك تفاعل مستمر .
- خروج جماعات الطائفات الأقلية عن الهوية الجماعية الغالبة وتعامل كأنها ((طابور خامس)) ومحط شك وريبة كما حصل مع الطائفة المسيحية في المجتمع الفارسي، والطائفة اليهودية في دول الكنائس الأوربية قبل عصر التنوير .
- وقد يحصل توافق بين الديانات القومية للأكثرية والأقلية وتصبح هنالك هويتان للانتماء .

القومية وهوية الانتماء :

---

[10] انظر محمد الجنداي حول ا نتاج والوعي والتركيب ا جتماعي بيروت . ص ٢٠٨ وما بعدها

[11] الدكتور فاضل الفكي السياسي العربي ا سلامي وزارة ا علام بغداد ١٩٧٦ ص ٩٢ .

أن احتلال القسطنطينية عام –م على يد المسلمين بقيادة الدولة العثمانية مثل نهاية الإمبراطورية المسيحية الشرقية، وقد ترافق هذا التوسع المذهل الذي امتد للعصر الذهبي الإسلامي من القرن التاسع إلى القرن الثالث عشر الميلادي بازدهار فكري كانت تقوده بغداد لترسيخ هوية الانتماء الإسلامي مقابل تصدع هوية الانتماء المسيحي نحو القومية. وبعد ان تصدع البيت الإسلامي في الشرق وشمال أفريقيا هو الآخر توجه بشعوبه صوب الهوية القومية وأن تداخلت الهوية الدينية والقومية في حالات عديدة.

فتحت الدولة القومية State nation الباب مفتوحا لهوية الانتماء القومية بعد أن سئم الأفراد الاغتراب إزاء الحروب الدينية وتمرد الجماعات القومية على هيمنة الكنيسة الإيطالية عليهم وعلى كنائس المذاهب والطوائف المتناحرة في إيطاليا وألمانيا وبريطانيا وعموم أوربا الشرقية والغربية، فأصبحت قضية الغايات الفردية والخلاص الفردي والجماعي محور الانتماء للدولة القومية الحديثة، ولكنها أدخلت الأفراد في أخلاق الغاية أي التمحورحول نسق العرق والقومية لجني المصالح الأكبر من الأعراق والقوميات الأخرى في حلقات من الصراع انعكس على إعادة تنظيم النظم الاجتماعية والسياسية وملامح هوية الانتماء بعد أن جاءت أولويات السياسة على حساب أولويات الأخلاق والعادات والقيم.

وقد اتسمت الهوية القومية بـ

- تقليد المنهجية الأثنية في تحديد ملامح الهوية.
- تقليد المصالح المشتركة للجماعات الأثنية.
- تقليد العادات المشتركة وتمجيد الرموز والدلالات للجماعة الأثنية.

---

[12] انظر جاك شافليه تاريخ الفكر السياسي ترجمة محمد عرب . المؤسسة الجامعية للنشر والدراسات بيروت ١٩٨٥ ص ٢٣٧ .

- تشجيع سياسات التفوق والسيطرة والهيمنة لتمجيد الهوية الأثنية.
- تشجيع تبادل العلاقات الثقافية والاقتصادية والسياسية لقيادات البرجوازية، تلك الطبقة الناهضة على حساب ركام الكنيسة وطبقة الإقطاع، مع الرؤية الجديدة لتمجيد الهوية القومية .
- شجعت هوية الانتماء القومي في حالات التطرف للهويات التعصبية والعنصرية التي آلت إلى الصراعات الاجتماعية على حساب تماسك المجتمع الواحد المتعدد الأعراق والأثنيات والطوائف.

هوية اللغة:

أن قانون انتشار اللغة وتشعبها إلى لهجات قد أثر في معاني تمييز هويات الشعوب والأفراد، ولهذا السبب قل تأثير اللغة كخاصية مميزة لهوية الشعوب. فاللغة الهندية الأوربية الأولى قد تفرعت إلى لغات كثيرة ومثل هذا حدث للغة السامية الحامية الأولى. وقد شهدت عصورنا التاريخية كثيرا من آثار هذا القانون. فاللغة اللاتينية التي سادت أوربا في أواخر العصور القديمة وفي العصور الوسطى قد تشعبت إلى عدد كبير من اللغات الفرنسية والإيطالية والأسبانية والبرتغالية ولغة رومانيا.. رغم بقاء اللغة اللاتينية كلغة أدب وكتابة هذه الشعوب، ولكنها تنحت عن ذلك لتترك التاريخ وحده معبرا عن رمز اللغة في خصائص تحديد هوية الانتماء لهذه الشعوب. والعصر الحاضر نفسه يشهد كثيرا من آثار هذا القانون، فالأسبانية أمريكا اللاتينية لهجات كثيرة، وإنكليزية إنكلترا تختلف عن إنكليزية الولايات المتحدة الأمريكية والألمانية ليست هي كما في سويسرا ٠ وعربية المشرق العربي ليست هي كما في المغرب العربي بسبب

---

13 انظر آرفنيج زايتل . النهاية المعاصرة في علم ا جتماع ترجمة محمود عودة . منشورات ات السلاسل الكويت ١٩٨٩ص ٣٠٥ .

14 علي عبد الواحد وافي . نشأة اللغة عند ا نسا والد فل . القاهرة ١٩٦٢ كذلك انظر د. ابراهيم مذكور معجم العلوم ا جتماعية مصدر سبق ذكره ص ١١٢ .

طغيان الظروف الزمانية والمكانية والمحيطة على خصوصية النطق واللهجة الموحدة اكثر من ضواغط الالتزام بالنطق واللهجة الموحدة. وبذلك اعتبرت اللغة عامل من العوامل المتغيرة في تحديد الهوية والانتماء خاصة بعد تصاعد حالات سرقة هويات الانتماء عن طريق اللغة او إتقان لغة جماعة أخرى قد سهل انتقال الفرد وتكيفه مع البيئة الجديدة والحصول على هويتهم .

هوية الطبقة :

أن النمط الجديد من المجتمعات الذي تكون ما بعد الصناعة افرز صراعا حادا بين رأس المال والعمل، نتج عنه صراعا بين أصحاب رأس المال والعمال بالشكل الذي رتب تصنيفا اجتماعيا حادا انتشر عالميا بين طبقات العمال الواسعة وطبقات أرباب العمل المحدودة ، وانعكس ذلك في تبني الطبقة العاملة نظرية شاملة أيديولوجية وسياسية أطلق عليها ((النظرية الماركسية)) رتبت انتماءات طبقية اتسعت مع اتساع نفوذ وتأثير الأنظمة السياسية الشيوعية بقيادة الاتحاد السوفيتي السابق للفترة من ((-)) وهي الفترة التي فشلت الطبقية العمالية بتجذير هوية الانتماء الطبقي على حساب هوية الانتماء الدولوي القانوني أثر الزلزال السوفيتي وتفككه إلى كيانات قومية والانهيار الدراماتيكي لكتلة الدول الشيوعية وتفكك بعضها إلى سلالات وأثنيات.

الهوية الدولوية القانونية:

أثرت قوانين العلاقات الدولية وتفاعلاتها بموجب ما يسمى بالقانون الدولي والمعاهدات والاتفاقات الدولية التي تنظم انتقال وعمل ومحاكمة الأفراد فيما بين الدول، والاعتماد المتبادل للوثائق المصدقة من قبل الدول على هويات وجوازات وشهادات واموال الأفراد الصادرة من قبل الدول المعنية في تحديد

---

[15] جو جوزيف عجينة. رافي اللغة والهوية عالم المعرفة . العدد ٣٤٢ لسنة ٢٠٠٧ ص ٢١ .

[16] انظر م تار الهواري علم ا جتماع ظهور اجتماعي نقدي الشركة العامة للتجهيز والتوزيع فاس ١٩٧٩ ص ٩٦ .

هويات انتمائهم والاعتراف بخصوصية القوانين المحلية للدول وأثرها الاعتباري والقانوني والسيادي في هذه العلاقات والتفاعلات ، رتب كل ذلك بقاء الأثر الفاعل لهوية الانتماء الدولوية للفرد على حساب انحسار هويات الانتماء العرقية والمذهبية والمهنية والطبقية.

المبحث الثالث: أزمة الانتماء المعاصر

لقد عبرت مرحلة الحرب الباردة عن هويات مركبة اتسمت بالمظاهر

- الهوية القومية القانونية لمواطني دول المعسكر الشيوعي الذائبة في هوية المعسكر الثقافية والسياسية والتي عرفت بهوية مواطني الدول الاشتراكية المعادية للرأسمالية.
- الهوية القومية القانونية لمواطني دول المعسكر الرأسمالي الذائبة في هوية المعسكر الثقافية والسياسية والتي عرفت بهوية مواطني الدول الديمقراطية الرأسمالية الحرة المعادية للشيوعية الطبقية.
- الهوية القومية القانونية المحلية لمواطني دول العالم الثالث والتي لم تعرف الاستقرار في مضامينها الثقافية والسياسية والحائرة بين الانتماء القومي والعرقي والمذهبي أو المتعلقة بحبال الإمدادات الشيوعية أو الرأسمالية وخاصة المضامين السياسية والاقتصادية.

وبعد نهاية الحرب الباردة وانهيار المعسكر الشيوعي وتداعيات الثقافة الشيوعية والشمولية والطبقية والسياسية المعادية للرأسمالية مع تفرد التحالف الرأسمالي وثقافة الديمقراطية الرأسمالية والمجتمع الحر، ظهرت أصوات عديدة لتعميم الهوية الثقافية السياسية الاقتصادية للمعسكر الرأسمالي بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية على العالم كهوية إنسانية لثقافة انتصرت على الثقافة الشيوعية، وستساهم في نهاية تاريخ الصراعات المستمرة في العلاقات الدولية . وقد رتب ذلك إعطاء المسوغ القانوني والأخلاقي لتعميم ذلك على

---

[17] دولة ا م القومي المستقبل العربي العدد ٣٢٥ ص ٢٥ . منذ ر سليما

شعوب العالم وتوظيف منظمة الأمم المتحدة والمنظمات الإقليمية والأحلاف والقواعد العسكرية التي كانت أدوات للصراع الدولي بين القطبين إلى أدوات لفرض هوية إنسانية شاملة ذات مميزات وخصائص رأسمالية أمريكية أوربية، وانعكس ذلك في توظيف ما طرحه "فوكاياما" في انتصار اللبرالية بصورة نهاية لهذا الغرض. ومنذ ذلك اصبح العالم في حالة غليان فكري وأيديولوجي في السنوات التي تلت الزلزال السوفيتي فعمت ظاهرة الأعلام المقلوبة ٠ والبحث عن رموز جديدة لثقافات جديدة ولهويات جديدة. الأمر الذي دفع "صموئيل هنتغتون" ليصرخ في كتابه "صدام الحضارات" ويحذر من انبثاق تفعيل فعال لهويات حضارات تاريخية ساكنة كالحضارة الصينية والإسلامية الأمر الذي يتطلب بسرعة فرض الهوية الثقافية للحضارة الغربية لما لها من انعكاسات على تمحور الهويات القومية ومضامينها السياسية حولها " من خلال

:. **المضامين الاجتماعية السيكولوجية:** لقد أشار "تاجفيل Taifel عام م بوضوح إلى أن نظرية الهوية لها ثلاث جوانب

. التحليل السيكولوجي للعمليات المعرفية– الدافعية . وهنا لابد من تعميم عملية التربية الغربية لاكتساب المعرفة والعملية الإعلامية المرافقة لها .

. تطبيق العمليات المعرفية على العلاقات بين الجماعات والأفراد وهذا يتطلب تعميم أنماط التفاعل في عمليات الاتصال الفردي في المجتمعات الدولية بما يتناغم مع الأسلوب الغربي.

. فرض استمرار هذه الأنماط على العلاقات الاجتماعية وبذلك تنتقل الهوية الشخصية للخصائص الفردية في الدول البعيدة عن الحضارة والثقافة الغربية إلى الهوية المستندة على العلاقات الاجتماعية بين

---

[18] صموئيل هنتغتو صدام الحضارات واعادة بناء النظام العالمي . دار الجماهيرية . بنغازي . ١٩٩٩ ص ٦٩ .

[19] صموئيل هنتغتو المصدر السابق نفسه ص ٧٠ و ص ٧١ .

الأفراد والجماعات فنجد تعميم لنمط الاستهلاك، لنمط التداوي، لنمط التعليم، لنمط الاقتصاد، لنمط السكن والتنقل، لنمط الادخار، لنمط التأليف والبحث، لنمط الأمن، لنمط القضاء، لنمط النظام السياسي. وبذلك تشكل المتغيرات في الأنظمة الاجتماعية الأسرية والصحية والتعليمية والقضائية والأمنية والسياسية عملية إزاحة الثقافة القومية أو الوطنية أو القانونية القديمة صوب الثقافة الغربية وأنظمتها الفرعية في نظامها الاجتماعي العام.

. . مضمون اللغة:

أن تعميم تداول المخاطبات والمراسلات المرئية والسمعية والمكتوبة بين العالم باللغة الإنكليزية للثقافة الغربية يلعب دورا مهما في تصدع الهويات القديمة نحو الهوية الغربية–الأمريكية بعد أن شكلت دراسات عديدة للتاريخ الإنساني الحضاري الدور المهم للغة في تحديد خصائص الهويات الوطنية للاثنيات والسلالات والأعراق لذلك جاءت الإزاحة للمعاني والمصطلحات الوطنية لتحل محلها المعاني والمصطلحات الإنكليزية لتصب في هذا الهدف .

.. مضامين المنظمة الدولية :

ان الدفع لاحتواء المنظمة الدولية كواجهة لتمرير ((الهوية الغربية–الأمريكية)) على العالم جاء تحت معطيات تفرد الغرب على فاعلية المنظمة الدولية "الأمم المتحدة" وأحداث متغيرات فيها وفي مضامين عمل مؤسساتها بما يضمن خدمة هذا الهدف من خلال

- تعزيز دور مجلس الأمن بعد إضافة أعضاء جدد لا يخرج مرشحيه عن ((ألمانيا واليابان)) بعد أحداث وقائع جديدة على الساحة الدولية

---

[20] احمد زايد انظر د. سايكولوجية العلاقات بين الجماعات . عالم المعرفة . العدد ٣٢٦ لسنة ٢٠٠٦ ص ٢٧ ومابعدها .

[21] جو جوزيف ترجمة نور رافي مصدر سبق كره ص ١٨ ١٩ .

لنشاطهما السياسي والأمني والاقتصادي بما يضمن هيمنة الأكثرية السائدة للغرب على حساب انحسار النفوذ الروسي–الصيني .

- تنامي المناداة " بالمواطنة العالمية " من خلال الدعم لاقتراح إنشاء الجمعية البرلمانية للأمم المتحدة (UNPA) تحت شعار تجاوز تنافر بيروقراطيات البرلمانات الوطنية وتحت شعارات تجاوز سلبيات التصويت في الجمعية العمومية للأمم المتحدة التي تعطي الحق المادي للتصويت بين الدول الصغيرة في كثافة السكان مع الدول الكبيرة في كثافة السكان وفي هدف آخر هو الالتفاف على الاتحاد البرلماني الدولي الذي ركز على الجانب الوطني في العضوية بعيداً عن طروحات الهوية العالمية ذات الخصائص الغربية– الأمريكية .

. المضامين السياسية:

الهوية السياسية للأفراد والجماعات في الإطار الدولوي لم تشق طريقها في بناء هوية وطنية متمثلة في إقامة الدولة الحديثة لبناء وتشكيل مجتمعاتها . وجاءت هذه الدول في معظمها تقليدا لدول القوة الاستعمارية السابقة وبالتالي فأن البحث عن إقامة دولة ما هو إلا رد فعل للاستعمار، ذلك أن أهم الحقائق السياسية في القرن العشرين هي انتهاء فترة الحكم الاستعماري وظهور دولة مستقلة ترنو إلى التحديث في أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية، فخلق ذلك تذبذبا في قوة الانتماء لهذه الهوية الدولوية المستورة. وفي العالم الأوربي أصبحت الدولة أقوى جهاز وافضل أداة لقيادة المجتمع سياسيا واقتصاديا واجتماعيا. فقوة الدولة أصبحت ضرورة لحاجة الحزب السياسي لتمرير مصالحه الاقتصادية والإعلامية والانتخابية مع التأكيد لبقائها بعيدا عن التدخل الفاعل اللانشطة الاقتصادية الداعمة لهذا الحزب او ذاك وحتى في مضامين السياسة الخارجية أضحت الدولة تسير حسب رغبات الأحزاب والقوى الفاعلة

---

[22] الموسوعة الحرة ويكيبيديا / في ٢٠٠٧/١١/١٨ /file/h/ شبكة ا نترنت .

مما رتب أيضا في تذبذب قوة ملامح الدولة في هوية الانتماء التي أضحت تساير التوجه السياسي لهذا الحزب أو ذاك.

ومع بداية السبعينات من القرن الماضي يتبين من خلال تحليلات الماركسيين بأن مؤسسة الدول أخذت تترسخ بدلا من أن تضعف كما هو مخطط لها نظريا في الفكر الماركسي الأمر الذي أدى إلى تنافر الفكر المعبر عنه في هوية الانتماء الشيوعي في المجتمعات الشيوعية وواقع هيمنة الدولة على هذه الهوية وهذا رتب أيضا تذبذبا في قوة الانتماء إلى هوية محددة عرقية كانت أو قانونية أو دينية .

السيد والتابع Client Patron Reliton

أحد أشكال الجدل الطويل في الأدبيات المتعلقة بسياسة بعض الشرائح والأحزاب والجماعات هي علاقات السيد بالتابع، ورغم ما قيـ. عنها من أنها علاقات مؤقتة بيد أ التحليل السياسي اظهر بقاء بعض الأحزاب والجماعات والشرائح مرتبطين بمناهج وسياسات وتوجيهات قوى خارجية. فمن يتابع بعض الجماعات الغنية المتنفذة في الهند يجد أن سلوكها وارادتها وخياراتها تتجه دائما إلى الدولة التي استعمرت الهند قرونا، وخلفت مرتكزات ثقافية واناسية مرتبطة بإنكلترا، والحالة نفسها مع جماعات من جنوب أفريقيا وجماعات أخرى من أمريكا اللاتينية والولايات المتحدة الأمريكية التي اعتبرت أمريكا الجنوبية صديقة خلفية لها لعقود طويلة أو مع أسبانيا الموائمة لها من ناحية اللغة ومعظم العادات والتقاليد . وكذلك الحال نفسه بين فرنسا وشرائح اجتماعية متنوعة وعديدة في مجتمعات دول أفريقيا وخاصة أفريقيا الشمالية أو الدول الناطقة بالفرنسية . ونجد الحال نفسه في استراليا والولايات المتحدة الأمريكية .

السياسة الدولية:

---

[23] د. عبد العال دبلة الدولة رؤية سوسولوجية دار الفجر القاهرة ٢٠٠٤ ص ١٠ .

[24] انظر اندرو فنكل ونوكهت سيرما تركيا المجتمع والدولة ترجمة هدي حميد الدوري . بيت الحكمة بغداد ٢٠٠٢ م ص ص ١٩١ ١٩٢ .

اتسمت خصائص العلاقات الدولية أثر اختلال التوازن الدولي بتراجع القطب السوفيتي إلى القوة التقليدية لدول كبرى كروسيا وانصراف الصين الى ترتيب وضعها الاقتصادي بنظام اشتراكية السوق، بتفرد القوة والمصلحة في سير وتفاعل هذه العلاقات، وفرضت توجهات السياسة الأمريكية الكونية بصماتها غلى فاعليات معظم الدول في عملية التفاعل هذه، الأمر الذي رتب انقسام العالم الى

. متحالف مع القوى التي تقودها الولايات المتحدة.
. عدو لهذا التحالف يتكون من الدول التي تعارض التوجهات التي تقودها الولايات المتحدة.

ومع الاستخدام السياسي للاستراتيجيات الأمريكية– الأوربية ووسائطها خلال العقد المنصرم تعزز هذ الفرز إلى

. دول متحالفة مع الولايات المتحدة وأوربا ضد الإرهاب الدولي المحدد وفق المنظور الغربي.
. دول وجماعات ومنظمات متهمة بالإرهاب أو مساندة الإرهاب ، أي ظهور طروحات جديدة للأمن العالمي.

فأصبحت شعوب كلا الطرفين تعاني من أزمة الإرهاب ومن هو ضد الإرهاب وما هو الإرهاب أصلا وماهي المقاومة الشرعية وما هو المفهوم العملي للسيادة.. كل ذلك اربك العديد من الشعوب في متاهات الانتماء إلى الديمقراطية وتبني حقوق الإنسان ومحاربة الإرهاب والتحالف مع من أو ضد من. الأمر الذي رتب إضافيا غماميا على مفاهيم الانتماء وخصائص الهوية المحددة له .

العولمة السياسية:

---

[25] انظر محمود محمد ياسين دار الرضا الجهود الدولية والتشريعية لمكافحة الارهاب وحرب العالم الجديد حلب ٢٠٠٥ م ص ٢٧ .

في عام م خرجت منظمة التجارة العالمية إلى ارض الواقع لتكون أول منظمة دولية تعني بالمسائل المتعلقة بالسياسات التجارية للدول. وقد أدى هذا التطور إلى تزايد الشعور بالحاجة لمزيد من التعاون والتكامل فيما بين الدول وظهرت ترتيبات تكاملية جديدة الأنماط والأبعاد والتوجهات على اعتبار أن الاتفاقية هي الإطار القانوني لتحرير التجارة العالمية، ولا يوازيها سوى المجموعة الأوربية التي نجحت في تشكيل التكتل التجاري ثم السياسي ثم الاتحادي حتى وصل إلى اتفاقية دستورية استغنت بموجبها شعوب الدول الأوربية عن الهويات الوطنية لمصلحة الهوية الجامعة رغم بقاء بعض التداخل لطبيعة الفروق الزمنية التي تكونت فيها الهوية لحقبة طويلة. والهوية الجديدة الناشئة حديثا. فظهرت التكتلات الاقتصادية المؤثرة سياسيا في

- مجموعة النمور الآسيوية ((كوريا الجنوبية، ماليزيا، إندونيسيا، تايوان، تايلاند)) من اجل التعاون الاقتصادي المالي والتجاري الذي انعكس على التعاون السياسي واثر على تقارب الهويات المجتمعية وكأنها أصبحت اكبر مع الاحتفاظ بالخصوصية المحلية.
- منظمة التجارة الحرة لأمريكا الشمالية ((الولايات المتحدة، كندا، المكسيك)). فقد شعرت هذه الدول بأن التعاون التجاري الصناعي المالي قد ساهم في ترابط مجتمعي تجاوز الحدود القانونية الدولية لدولهم مما أثر كذلك على سمات وخصائص الهوية الإنمائية ، كما حدث في معاهدة ماسترخت عام للمجموعة الأوربية التي مهدت الانتقال من حالة السوق المشتركة إلى حالة الاتحاد بعد التوصل للعملة الموحدة السارية منذ عام وتطورت الإقليمية التجارية إلى تكتلات دولية بلغت اكثر من ( ) تجمع ، منها ( ) تجمع(ظهر عام ، وميزة هذه التجمعات أنها تجاوزت صيغة الحدود المتاخمة لضرورات التعاون إلى الإقليمية والعالمية)[26] ، كله ساهمت في

---

[26] اسامة المجدوب العولمة والإقليمية الدار المصرية اللبنانية ١٩٩٩ ص ٢٧ .

تذويب العديد من الخصائص والمميزات للهويات الوطنية مثل العادات والمصالح واللغة والشعور القومي والسيادة.. وقد تزامن هذا مع طروحات نظرية نهاية التاريخ End of History التي تزعم أن نهيار الاتحاد السوفيتي وانتصار الرأسمالية قد أسفرت عن انتهاء التاريخ لتحل محله العالمية بمفاهيمها وتفسيراتها المختلفة واتباع فلسفة ومنهج في التنمية وادارة الدولة والمجتمع، يرتب مدلولات جديدة للمواطنة العالمية على حساب الهوية الوطنية.

الخاتمة

قد لا يخط ببال البعض أهمية وجود خصائص ومميزات لانتماء الفرد لمجتمع بعينه ولدولة محددة المواصفات بموجب خصوصيتها الموضوعية. او قد يخطر ببال البعض أن تحديد هوية الانتماء ضرورة لمتطلبات تطبيقات القانون المحلي أو القانون الدولي. حيث أن مسألة تحديد الخصائص والمميزات والاحتفاظ بها وتمجيدها يرتقي فوق كل ذلك لما يحمله من أهمية اعتبارية ومادية تتعلق بالغايات العليا والأهداف العليا لأي مجموعة سياسية داخلة في المجتمع السياسي التواق دوما لتحقيق القانون الأزلي للشعوب الإنسانية في تجذير الاستقرار نحو التقدم والتطور بعد إكمال جميع أنظمته الاجتماعية الفرعية لتحقيق الغايات العليا وفي كل ذلك تلعب هوية الانتماء دور المحرك المستقطب لجهود الأفراد والجماعات.